# دور العراق العثمانى
## فى حرب القرم

دكتور عبد العزيز سليمان نوار

تعتبر حرب القرم نقطة تحول رئيسية فى تاريخ أوربا الحديث وفى تاريخ الدولة العثمانية . ولقد تعرضت كثير من المؤلفات والأبحاث لتاريخ هذه الحرب ، والملاحظ أن الغالبية العظمى من هذه الأبحاث لم تعن بصدى هذه الحروب فى ولايات العراق العثمانى .

كانت الدولة العثمانية أكبر قوة إسلامية هجومية دفاعية ضد عدوان أوربا على الشرق الأدنى . واستطاعت خلال جهادها أن تقضى على الإمبراطورية البيزنطية ، وأن تقلم أظافر جمهورية البندقية ، وأن تمد سيطرتها على معظم البلقان والشام ومصر والعراق والخليج العربى[١] ، واليمن والحجاز وشمال أفريقية[٢] . ولكن الدولة العثمانية عجزت عن خض شوكة الأساطيل البرتغالية فى المياه العربية الجنوبية فآثرت الحكومة العثمانية أن تتقوقع على نفسها وراء سواحلها ، ولم تحاول القوى الداخلية أن تنطلق إلى مجالات التنافس الدولى على قدم المساواة مع الدول الأوربية القومية الناهضة[٣] . كما أن هذه الدول الأوربية لم تكن فى حاجة إلى أن تقتحم على الدولة العثمانية قوقعتها ، ولا شك أن نظم الحكم العثمانى مسئولة إلى حد كبير عن الجمود الذى أصاب الدولة ، حيث أن قوة الدولة كانت مستمدة — فى كثير من الأحيان — من قوة سلاطينها ورجالات الباب العالى ومن نزاهة كبار الموظفين وحكام الولايات (الولاة) . ولكن بعد السلطان مراد الرابع[٤] — آخر السلاطين العظام الفاتحين — تولى العرش عدد من السلاطين الضعاف الذين لم يحسنوا اختيار

---

(١) باستثناء الجزء الجنوبى الشرقى .

(٢) باستثناء مراكش .

(٣) باستثناء حركتى فخر الدين المعنى الثانى وعلى بك الكبير اللتين فشلتا فى إنشاء علاقات خارجية دائمة .

(٤) حكم من ١٦٢٣ — ١٦٤٠ .

موظفيهم أو حكام الولايات . ثم إن الدولة كانت مقسمة إلى ولايات يحكم كل منها « وال » كانت مدة حكمه قصيرة ، وكانوا لا يعنون إلا باستتباب الأمن وجمع الضرائب ، ولم يعنوا بالخدمات التعليمية ولا الاقتصادية ولا الاجتماعية. فتلك الخدمات كانت من جهة نظر الحكام العثمانيين من مسئوليات الشعب نفسه ، الأمر الذى حال دون وجود مثل هذه الخدمات بسبب انتشار الجهل بين أفراد الشعب ، ولعدم احتكاكه بشعوب خارجية يقتبس منها أشكالا حديثة من الخدمات الضرورية . هذا إلى أن الشعب كان يعيش على هيئة دوائر شبه مغلقة نتيجة لسطحية الحكم العثمانى من جهة ولأن الشعب كان مقسما إلى طوائف(١) ، وملل(٢) ، وأهل مدن(٣) ، وأهل أرياف(٤) ، وإلى عشائر(٥) وعصبيات محلية حاكمة معترفة بالتبعية للسلطان(٦). وهكذا كان التفكك هو الطابع الواضح للتشكيل الداخلى للدولة العثمانية حيث أن ذلك النظام كان يقوقع كل ولاية وكل ملة ، وكل عصبية وكل طائفة وكل عشيرة حول نفسها . ولم تلبث الولايات العثمانية أن أصبحت تحت حكم عصبيات محلية سواء بموافقة الباب العالى عن طيب خاطر أو رغم أنفه .

---

(١) كانت كل طائفة مسئولة عن تدبير أمورها بنفسها ، وكان شيخ الطائفة هو المسئول عن تحسين أحوال طائفته وحل مشاكلها الداخلية أو مشاكلها مع الحكومة .

(٢) كانت لكل ملة غير إسلامية قوانينها الخاصة بها . ولم تكن الدولة تتدخل فى القضايا المذهبية طالما لا يوجد تهديد مباشر للأمن . وكان للرئيس الدينى — كالبطريق مثلا — سلطات مالية وإدارية واسعة .

(٣) كان أهل المدن أقرب الناس إلى متناول أيدى الحكام . ومن ثم كانت أغلب المدن الكبرى خاضعة للحكم العثمانى فيما عدا تلك المدن التى ظهرت فيها أسرات حاكمة مثل مدن السليمانية وأربل والعمادية .

(٤) لم يكن الفلاحون طائفة متماسكة ، وإن كانوا يشكلون القاعدة الشعبية الكبرى فى المناطق الخصبة فى العراق ومصر والشام وشمال إفريقيا ، وكانوا يعانون من شدة استبداد الحكام بهم .

(٥) كانت العشائر العربية تملأ العراق والشام وشبه الجزيرة العربية وشمال إفريقيا وأطراف مصر ، وكانت كل عشيرة تحت إمرة شيخها ، وكانت هذه العشائر تكره الحكم العثمانى التركى وتقاومه كلما استطاعت ذلك . وأما العشائر الكردية فى شمال العراق فكانت تلعب على الحكام العثمانيين وعلى الفرس الطامعين فى الاستيلاء على العراق .

(٦) أبقى السلاطين العثمانيون الأمراء الأكراد ، وكذلك شيوخ العشائر وشريف مكة فى مشيخاتهم مكتفين بإعلان هؤلاء الزعماء الولاء للسلطان العثمانى .

ولقد ظهر المماليك فى العراق فى منتصف القرن الثامن عشر كعصبية احتكرت الحكم فى ولاية بغداد وتوابعها[1] وحاول المماليك أن يفرضوا حكمهم على العراق بأمره ، ولكن قاومتهم الإمارات والعشائر الكردية بقوة لا تقل عن مقاومة العشائر العربية لهم . وكان السلاطين العثمانيون ينظرون بقلق بالغ إلى تلك العصبيات ويودون لو استطاعوا أن يعيدوا حكمهم المباشر إلى ولاياتهم ، ولكن توالى الأزمات الداخلية والحروب الخاسرة ضد روسيا والنمسا شغلت الدولة العثمانية عن مهمة إعادة الحكم المباشر إلى جميع الولايات

وظل الأمر على هذا النحو حتى وقعت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت ، وأثبتت هذه الحملة عجز العصبية المحلية المملوكية الحاكمة فى مصر عن حماية البلاد ، كما أثبتت عجز الجيوش العثمانية عن طرد الفرنسيين من مصر إلا بمساعدة الإنجليز . وأصبح جلياً أن الدولة العثمانية أصبحت فى حاجة سريعة إلى تجديد جيشها إذا أرادت أن تدفع عن نفسها عدوان الغرب الذى تعددت لديه مشروعات تقسيم الدولة العثمانية بين دوله . ولقد أقدم السلطان سليم الثالث على محاولة جريئة لإعداد جيش على النظام الأوربى إلا أن الرجعية الانكشارية البكتاشية فى الآستانة وجهت ضربة سريعة وقاضية للسلطان ، أنهت حياته وأوقفت مشروعه ، ولكن إلى حين . ثم أن السلطان محمود الثانى تولى العرش فى أعقاب ذلك الانقلاب الرجعى (١٨٠٨) إلا أنه بمرور السنوات أدرك أن سلفه سليم الثالث كان على حق ، فدبر ضربة محكمة للانكشارية (١٨٢٦) قضت عليهم نهائياً ، وأطلقت يده فى إصلاح أمور الجيش ومختلف أجهزة الدولة . وكان من أعز أمانيه أن يعيد حكمه المباشر إلى كل الولايات الواقعة تحت حكم العصبيات ، ونجح فعلا فى أن يعيد حكمه المباشر إلى ولايات العراق والأناضول وطرابلس ( ليبيا ) . إلا أن اصطدام محمود الثانى بالثورة القومية اليونانية، وبحركة التوسع المصرى أيام « محمد على » أدى إلى عرقلة تلك الجهود . ولقد أرغمت الدول الكبرى الأوربية محمد على على الانسحاب من المورة إلا أن « محمد على » انتزع

---

(١) كان العراق مقسما إلى ولايات أربع هى ( بغداد ، الموصل ، شهر زور ، البصرة ) ولم تلبث البصرة أن أصبحت متسلمية تابعة لبغداد ، بينما تلاشت ولاية شهر زور وأصبحت عدة إمارات كردية من أشهرها الإمارة البابانية فى السليمانية ، والبهدينانية فى العمادية ، والبوتانية فى جزيرة بن عمر ، والصورانية فى رواندوز ، وكانت هذه الإمارات تحت إشراف مماليك بغداد . أما الموصل فظلت ولاية قائمة بذاتها .

منه الشام ومع أن الحكم المصرى فى الشام كان حكما تقدمياً — إذا قيس بالحكم العثمانى هناك — فإن الدول الكبرى الأوربية وعلى رأسها انجلترا ، عملت على سلب مصر مكاسبها وعلى منع قيام دولة عربية قوية فى المنطقة ، حيث أن مصر خلال الثلاثينات من القرن التاسع عشر أصبحت تسيطر سيطرة فعلية على خطوط المواصلات العالمية الحديثة السريعة بين أوربا والشرق الأقصى . ثم إن السلطان العثمانى عقد اتفاقية خنكارسكله سى (١٨٣٣) فى أعقاب هزائمه أمام الجيوش المصرية ، فاتحاً بذلك المضايق أمام الأسطول الروسى ، واعتبرت إنجلترا تلك الإتفاقية بمثابة حماية روسية على الدولة العثمانية .

لهذا وضع بالمرستون Palmerston — وزير خارجية انجلترا حينـــذاك — سياسته على أساس إعادة ولايات الشام وشبه الجزيرة العربية إلى السلطان العثمانى ، على أن تصبح انجلترا من وراء ذلك صاحبة اليد العليا فى خطوط المواصلات العالمية عبر العراق أو مصر . فأنزلت الحكومة الإنجليزية أربع بواخر مسلحة فى أنهار العراق بين ١٨٣٥ — ١٨٣٩ فجعلت العراق بذلك قاعدة دفاعية هجومية ضد الوجود المصرى فى الشام وتمنع أية محاولات لإيجاد تعاون بين شعبى العراق ومصر ضد الحكم العثمانى. كذلك عملت السلطات الإنجليزية على مساعدة العثمانيين فى القضاء على العصبيات المحلية المتطلعة إلى مصر أو المستفيدة من التوسع المصرى(١) .

وكما كانت الحملة الفرنسية على مصر من العوامل التى دفعت الدولة العثمانية إلى تنفيذ الإصلاحات العسكرية ، فإن انتصارات المصريين فى الشام كانت دافعاً مباشراً للعثمانيين لتطوير نظمهم ، فصدر خط كلخانه (١٨٣٩) الذى نص على المساواة بين الرعية أمام القانون بغض النظر عن الدين والمذهب ، وعلى أن يتحمل الجميع أعباء المواطنة العثمانية فيما يتعلق بموضوعى الضرائب والجندية . وإذا كانت الرجعية الانكشارية هى التى عصفت بمحاولة سليم الثالث الإصلاحية فإن السلبية البيروقراطية والجهل والضغوط الاستعمارية هى العوامل الرئيسية التى جمدت خط كلخانة وجعلته مجرد حبر على ورق . على أن هذا الخط يمكن أن يعتبر نقطة بداية لإصلاح جديد ، كما يعتبر بداية

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث ١٨٣٠—١٨٧٢ ، المكتبة العربية القاهرة ١٩٦٨ الفصل الخامس ص ١٢٠ — ١٥١ .

لظهور مفاهيم جديدة عن الدولة العثمانية لدى بعض طوائف الدولة العثمانية ومللها . فقد اعتقد المسلمون أن ذلك الخط سيؤدى إلى تحول من جانب الدولة إلى المسيحية الأوربية . بينما اعتقدت الملل المسيحية فى الدولة أن ذلك الخط إيذان بانتصار قريب للمسيحية على الإسلام ، وأن الوقت قد أزف لأن يضع مسيحيو الشرق أيديهم فى أيدى مسيحى أوربا لتحقيق ما فشلت فيه الحروب الصليبية ، ولهذا رأى المسيحيون فى الدولة العثمانية فى ذلك الخط حقوقاً لهم ، ولم يروا فيه واجبات عليهم نحو الدولة ، فامتنعوا عن الدخول فى الجندية ، ورحب المسلمون بذلك .

والملاحظ أنه منذ أوائل القرن التاسع عشر تزايد اهتمام الدوائر السياسية والكنسية الأوربية بمسيحى المشرق العثمانى ، وأصبح هؤلاء المسيحيون يجدون فى قناصل انجلترا وفرنسا وفى المبشرين الفرنسيين الكاثوليك والبروتستنت الإنجليز والأمريكيين قوة يعتمدون عليها فى التخلص من الواجبات المفروضة عليهم ، وفى الحصول على حقوقهم ، بل وفى الثورة على الدولة العثمانية وعلى الحكام المسلمين المحليين . وتطورات كهذه كفيلة بأن تثير فتناً هوجاء ، وهذا ما حدث فى شمال العراق بين النساطرة[١] والأكراد (١٨٤٢) حيث وقعت مذبحة للنساطرة كان لها دوى كبير فى دوائر الدولة والدوائر العالمية .

ولم تكن الأزمات الطائفية بقاصرة على النزاع بين المسلمين والمسيحيين بل وقعت أزمات مشابهة بين الجالية الشيعية الكبيرة فى العتبات المقدسة وحكومة فارس من جهة والحكومة العثمانية من جهة أخرى[٢] . وكانت فارس الجبلية الشيعية المذهب خلال القرون الماضية تتطلع إلى احتلال سهول العراق الخصبة التى تحتوى على قبرى

---

(١) النساطرة هم أتباع نسطوريوس أسقف القسطنطينية ( ٤٢٨ م ) الذى دعا إلى المذهب الذى عرف باسمه والذى يجعل للمسيح طبيعتين إحداهما لاهوتية والثانية ناسوتية ولكن تحداه كيرلس بطريق الأسكندرية حتى نفاه ومات فى المنفى ( ٤٥٠ ) . وخلال العصر العباسى كانت أكثرية نصارى العراق من النساطرة واستمروا متمسكين بمعتقداتهم دون أية اضطهادات مقصودة حتى القرن التاسع عشر . وقد درسنا الصراع الدموى بين النساطرة والأكراد فى ١٨٤٢ فى كتابنا « تاريخ العراق الحديث » الفصل السادس .

(٢) العراق قسمة تقريباً بين الشيعة والسنة وكربلاء والنجف مدينتان عربيتان تقطن فيهما جاليتان فارسيتان كبيرتان كانتا من القوة لدرجة الطمع فى السيطرة على المدينتين سيطرة كاملة .

الإمامين « على » و « الحسين » . ولا يكاد يمر قرن من الزمان حتى تنقض الجيوش الفارسية على العراق لتطردها الجيوش العثمانية ... وهكذا . وخلال الصراع بين محمد على ( والى مصر ) والسلطان محمود الثانى ، مد شاه فارس يده إلى « محمد على » لعله يتفاهم مع محمد على من أجل استحواذ فارس على العراق ، أو على الأقل ليضع يده على السليمانية والمحمرة . والعتبات المقدسة[1] . ولهذا عنيت الحكومة العثمانية قبيل وبعد انسحاب المصريين من الشام بتوطيد الحكم العثمانى فى العراق ، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تزايد التوتر بين الدولتين العثمانية والفارسية ، وكاد الموقف أن ينفجر عندما حاصر نجيب باشا ( والى بغداد ١٨٤٢ — ١٨٤٧ ) كربلاء وكانت قد استعصت على اسلافه . وحيث أن الجالية الفارسية بالمدينة تمسكت بالقوة بما كان لكربلاء من شبه استقلال ذاتى[2] ، فقد تحول هجوم القوات العثمانية على المدينة إلى مذبحة للشيعة هناك ، ولم تهدأ الأمور إلا بتدخل كل من روسيا وانجلترا حتى سويت الأزمة بالمفاوضات .

وفى جنوب العراق كانت هناك مشكلة معقدة حول المحمرة وعربستان (خوزستان) فقد سبق أن استولى « على رضا باشا » — والى بغداد — على المحمرة سنة ١٨٣٧[3]، ولكنه تركها فى يد رؤساء عشيرة كعب العربية[4]! ، وكان عملاء الفرس من هؤلاء الزعماء أكثر دهاء من عملاء العثمانيين الأمر الذى أدى إلى ضياع المحمرة وعربستان من الدولة العثمانية بمقتضى معاهدة أرضروم الثانية (١٨٤٧) التى وقعت بوساطة من روسيا وانجلترا[5] .

---

(١) ع. نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٢٠٤ .

(٢) وصفت كربلاء فى بعض الوثائق بأنها A self-governing semi alien Republic. J. Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf Culcutta, 1915, Vol. I, Pt. I, pp. 1348-1349.

(٣) V. Fontanier : Voyage dans l'Inde, Paris, Tome I, pp. 360.5, 374.5, 602.4 ; R. Taylors, Memorandum (I.O.R., P.P.G., Vol. 35, pp. 799-818).

(٤) H. Layard : Early Adventures in Persia, London 1887, Yol. I, pvp. 455-459, Vol. II, pp. 216, 244, 271-272 ; Taylor's Despatch to the Secret Committee : July 8, 1842. (India Office Records, Political Agent at Bagdad, Vol. 13, pp. 77-79).

(٥) انظر نص الاتفاقية فى « الجمهورية العراقية ( وزارة الخارجية ) قضية الحدود العراقية الإيرانية — مطبعة الحكومة — بغداد ١٩٣٥ ص ٤ — ٨ .

وبينما حصلت فارس على عربستان بمقتضى تلك المعاهدة فقد تخلت عن جميع مطالبها في السليمانية وكردستان. وكان ذلك تمهيداً للقضاء النهائى على العصبيات المحلية الحاكمة فى كردستان . ولقد كانت الإمارات الكردية فى شمال العراق مثار مشاكل معقدة متتالية بين الدولتين الفارسية والعثمانية ، واستطاعت الحكومة العثمانية أن تقضى على الأسرات الحاكمة الكردية الواحدة بعد الأخرى ، فسقطت الأسرة البهدينانية والأسرة البوتانية والأسرة الصورانية ولم يبق من العصبيات الكردية الحاكمة سوى الأسرة البابانية فى السليمانية . وكان أحمد بابان هو الأمير الحاكم أثناء المفاوضات التى سبقت عقد معاهدة أرضروم الثانية . وكان الرجل جريئاً طموحاً . ووجد فى القنصل الإنجليزى فى بغداد المستر هنرى رولنسون Henry Rawlinson قوة تشد أزره ضد العثمانيين . وكان رولنسون يحث حكومته والحكومة العثمانية على الإبقاء على أحمد بابان حاكماً على السليمانية ، إلا أن العثمانيين كانوا قد عقدوا العزم على تصفية الإمارات والعصبيات فى العراق ، وزحفت القوات العثمانية — بالتعاون مع عبد الله بابان أخى أحمد — صوب السليمانية وأرغمت أحمد على الفرار من عاصمته إلى إيران وتولى الحكم مكانه أخوه عبد الله(١) . وعلى عادة البابانيين عاد أحمد من الأراضى الفارسية على رأس جيش جديد لاستعادة حكمه ولكنه فشل فى هذه المحاولة رغم الدفاع الحار من جانب رولنسون عنه . وبعد ذلك بوقت قصير استدعى « عبدى باشا » — والى بغداد — من السليمانية حاكمها عبد الله بابان واحتفظ به فى بغداد ثم نفاه إلى الآستانه (١٨٥١) وانتهى بذلك حكم الأسرة البابانية(٢) .

تلك كانت الأوضاع العامة فى العراق قبيل حرب القرم ، ويمكن أن نوجزها فى النقاط الرئيسية التالية .

١ — كان العراق مقسما إلى ولايتين ( بغداد والموصل ) . كانت بغداد مسئولة عن أمور البصرة وكردستان .

٢ — أصبحت للعراق قيمة كبيرة فى مجال التنافس الدولى حول خطوط المواصلات العالمية بين الشرق والغرب بواسطة البواخر أو بواسطة السكك الحديدية.

---

(١) H. Rawlinson to S. Canning, August 6, 1842, June 24, July 8, 1846, Sept. 29, 1846, F.O. 195/237 ; Rawlinson to Addington, No. 4, June 26, 1846, F.D. 78/656.

(٢) Rawlinson to Aberdeen June 14, 1853, F.O. 195/957 ; Kemball to Canning No. 6, February 27, 1850, No. 21, July 3, 1850, F.O. 195/334.

٣ — انتهى عهد العصبيات المحلية الحاكمة ولكن ظلت العشائر العربية والكردية على ما هى عليه من التفاف شديد حول شيوخها ومن ثورات تكاد تكون موسمية على الحكومة .

وكانت عشائر الجاف الكردية السنية تثير مشاكل عديدة عبر الحدود بين الدولتين الفارسية والعثمانية ، كما أن بعض العشائر العربية الشيعية كانت مستعدة للثورة بالتعاون مع الفرس . وكانت حكومة طهران وسلطانها فى المناطق المجاورة للعراق مستعدة لإمداد الثوار السنيين والشيعيين على السواء بالمساعدات المادية والعسكرية ضد الحكومة العثمانية ، خاصة وأن ذكريات أزمة كربلاء الدموية كانت لا تزال قريبة ، وأنه كانت هناك تطلعات قوية من جانب شيعة العتبات المقدسة نحو فارس . إلى جانب هذا كانت مشكلات الحدود لا تزال قائمة ، وكانت كل دولة تحاول أن تثبت بطريقة أو بأخرى أحقيتها فى الأقاليم المتنازع عليها (قطور، زهاب ، المحمرة ) . وكانت هناك لجنة مشتركة لتحديد الحدود تقوم بعملها فى وضع خريطة تفصيلية لتلك الحدود . وكانت هذه اللجنة مكونة من مندوبين عن الدولتين الفارسية والعثمانية وعن الدولتين الوسيطتين : روسيا وانجلترا . وخلال أزمات الحدود بين الدولتين اتضح أن روسيا كانت تشد أزر فارس ، بينما كانت انجلترا تشد أزر الدولة العثمانية(١) .

٤ — كانت ذكريات المذابح الطائفية بين الأكراد والنساطرة لا تزال تدوى فى الآذان وكان النساطرة على استعداد للتعاون مع الدول الأوروبية المعادية للدولة العثمانية ، خاصة وأن انجلترا وروسيا تدخلتا لصالح النساطرة خلال تلك المذابح(٢) هذا إلى أنه كان من المعروف أن روسيا تحمى الأرثوذكس وفرنسا تحمى الكاثوليك وانجلترا تحمى البروتستنت فى الدولة العثمانية ، فدارت فى العراق منافسات شديدة بين المبشرين الفرنسيين الكاثوليك والمبشرين البروتستنت الأمريكيين ، وكان النشاط

---

(١) ع. نوار : تاريخ العراق الحديث : الفصل الثامن .

(٢) Ross : Letters from the East (Edited by his Wife), London 1902, pp. 38, 52-59, 66-69, 135, 147 ; J. Piolet : La France au dehors. Les Missions Catholiques Françaises au XIXe siècle. Publiées sous la direction du Père J.B. Piolet, 2 Tomes. Paris, Tome I, pp. 259-260 ; J. Samuel : Journal of a Missionary Tour through the Desert of Arabia to Bagdad. Edinborough 1844; A. Grant : The Nestorians, London 1841.

التبشيرى الفرنسى قوياً لدرجة أن الممثلين الإنجليز فى العراق تصوروا أن الفرنسيين بعد سنوات قليلة سيطروا سيطرة كاملة على مسيحي العراق ، فعمل المبشرون الإنجليز والأمريكيين على وقف النشاط التبشيرى الفرنسى الكاثوليكى بين النساطرة ، وسعوا إلى تحويل أكبر عدد منهم إلى البروتستنتية .

وبنشوب حرب القرم فى يونيو ١٨٥٣[١] كانت هناك احتمالات قوية لدى العثمانيين بشأن دخول فارس الحرب إلى جانب روسيا من أجل ابتلاع العراق ، كما كانت لدى الإنجليز احتمالات قوية أيضاً عن أن النشاط الروسى سيتزايد فى اتجاه العراق بسبب ظروف الحرب . وكان الإنجليز كذلك يخشون من أن يستخدم الروس حكومة فارس فى إثارة المشاكل فى وجه الحكومة العراقية ، خاصة وأن علاقات فارس الإنجليزية لم تكن أقل سوءاً من علاقات فارس بالدولة العثمانية حيث أن حكومة فارس كانت تعتقد أن الإنجليز هم المسئولون عن ضياع كردستان وأفغانستان منها . كما كانت حكومة فارس تنظر بعين القلق لذلك التفاهم القوى بينهم وبين السيد سعيد سلطان مسقط[٢] .

وكانت سنة ١٨٥٣ من أدق سنوات حرب القرم بالنسبة للدولة العثمانية ، حيث وقفت الأخيرة وحدها أمام روسيا فلم تدخل فرنسا أو انجلترا الحرب ضد روسيا إلا فى مارس ١٨٥٤ . وكان من المعروف أن الجيوش العثمانية لا تقوى وحدها على الصمود أمام الجيوش الروسية ، ومن ثم أصبح من المحتمل أن تنهار الدولة العثمانية خاصة إذا ما طعنت فارس طعنتها فى العراق . وكان احتمال انهيار الدول العثمانية قوياً

---

(١) لن نخوض فى تفاصيل حرب القرم فهى أشهر من أن تعاد . ودراستنا هنا قاصرة على دور العراق فى هذه الحرب ويكفى أن نشير إلى أن الصراع الفرنسى الروسى السياسى المذهبى كان عاملا رئيسياً لتلك الحرب . على أن آمال روسيا فى المضايق بل فى الاستيلاء على الدولة بأسرها كانت الهدف الأسمى للروس . ونشبت الحرب فى يونيو ١٨٥٣ ودارت مفاوضات لعقد صلح دون جدوى . ولما دمر الأسطول الروسى القطع البحرية العثمانية الراسية فى سينوب دخلت فرنسا وانجلترا الحرب . وكانت الأخيرة قد عزمت على منع روسيا من أن تتوسع على حساب الدولة العثمانية .

(٢) كان السيد سعيد سلطان مسقط ( ١٨٠٦ - ١٨٥٦ ) أكبر حليف لبريطانيا فى الخليج العربى واشترك معها فى العمليات الانتقامية ضد المشيخات العربية المطلة على الخليج العربى فى ١٨٠٩ وفى ١٨١٩ .

جداً لدى هنرى رولنسون — القنصل الإنجليزى فى بغـــداد ، فطفق يدبر أمره على هذا الأساس واعتقد أن من واجبه أن يسهل أمر استيلاء انجلترا على العراق وكان يرى أن الإنجليز قد فاتهم فرصة احتلال العراق خلال أزمة التوسع المصرى فى المشرق العربى ( ١٨٣٢ — ١٨٣٩ ) ، وأن الفرصة قد واتت الإنجليز مرة أخرى وعليهم أن ينتهزوها .

وكان رولنسون يرى أن المنطقة التى يجب أن تستعمرها بريطانيا هى ذلك المثلث الواقع بين الزاب الأدنى وعناه ومصب شط العرب . وأخذ رولنسون يحث حكومته على الإسراع بالعمل على احتلال العراق لقيمته الـكبرى على طريق الهند . ولأن أهل العراق أنفسهم — حسب اعتقاده هو — ينتظرون يوم الخلاص من الحكم التركى على يد الإنجليز(١) .

لـكن هذه المخططات التى وضعها رولنسون لم تكن تتمشى مع سياسة حكومة لندن التى أصرت على المحافظة على كيان الدولة العثمانية ومنع الأسطول الروسى من الخروج من البحر الأسود . فوجهت حكومة لندن أنظار قنصلها فى بغداد إلى ضرورة العمل على المحافظة على كيان الدولة العثمانية فى دائرة اختصاصه ، وأهم ما يجب عليه أن يفعله فى هذا الصدد هو منع فارس من استغلال ظروف الحرب لاقتناص العراق(٢).

ومع أن المسئولين الإنجليز اتصلوا بالشاه ، وتأكدوا منه أنه لن يضرب السلطان فى ظهره وأنه لن يثير مطالبه فى قطور وكردستان وعربستان وكربلاء فى هذه الظروف إلا أن السلطات العثمانية كانت فاقدة الثقة تماماً بالحـكومة الفارسية وكان العثمانيون يعتقدون أن تلك الوعود ليست سوى تمويهات تخفى مخططات تهدف إلى اغتصاب العراق بالقوة(٣) .

والملاحظ أنه فى أعقاب نشوب الحرب بين السلطان والقيصر ، وقعت سلسلة

---

(١) H. Rawlinson to Addington, June 14, 1853, F.O. 195/957.

(٢) Clarendon to Rawlinson : November 3, 1853, F.O. 78/957.

(٣) Thompson to Clarendon : November 20, 1853 (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 106, pp. 237-239) ; Rawbinson to Redcliffe : June 29, 1853, F.O. 195/367.

من حوادث الحدود فسرتها السلطات العثمانية على أنها مقدمات غزو فارسى للعراق . فقد هاجمت عشائر من بنى لام[١] الشيعية العربية القوات العثمانية ثم فرت إلى الأراضى الفارسية دون أن تلحق بها قوات الحكومة العثمانية[٢] . كذلك أثارت بعض عشائر الجاف الكردية السنية الفوضى على الحدود العثمانية — الفارسية . وكانت لدى الممثلين الإنجليز فى طهران معلومات تؤكد أن بعض المالئين للروس فى البلاط الفارسى على اتصال بعشائر الحدود بقصد إثارتها ضد الدولة العثمانية لشغل بعض قواتها تخفيفاً عن جبهات القتال الرئيسية التى تعمل فيها الجيوش الروسية خاصة فى البلقان والأناضول[٣] .

وكان رشيد باشا الكوزلكلى قد تولى باشوية بغداد فى ١٨٥٢[٤] . وكان شديد الاعتقاد بأن الفرس سيشنون هجوماً على العراق إن آجلا أو عاجلا . وتبعاً لذلك اتخذ عدة تدابير لمواجهة الغزو الفارسى المنتظر . وكان على رشيد الكوزلكلى أن يعتمد على موارد العراق المالية والبشرية دون انتظار مساعدات من الباب العالى الذى لم يكن لديه أى احتياطى من المال أو القوات لإرسالها إلى العراق . وكانت المشكلة المالية من أهم المشكلات التى واجهت تمويل مشروعات رشيد الكوزلكلى الدفاعية فقد كانت خزانة بغداد خاوية ، فلجأ إلى فرض ضريبة جديدة دون استئذان من الباب العالى لمواجهة نفقات الاستعدادات العسكرية . وكان رشيد يريد أن يجعل من العراق نموذجاً لبقية ولايات الدولة العثمانية من حيث إنكار الذات وبذل الأموال فى مثل هذه الظروف الحرجة . ولكنه عندما شرع فى جمع هذه الضريبة وجد أنها لا يمكن أن تجمع إلا من أولئك الذين يقعون مباشرة تحت سيطرة الحكومة ، مثل الموظفين ، وأصحاب المنازل والتجار والأعيان والعلماء[٥] ، أما العشائر العربية

---

(١) من كبريات عشائر العراق . انظر عنها فى عباس العزاوى : عشائر العراق جزء ٣ ص ٢١٠ وما بعدها .

(٢) Rawlinson to Redcliffe : June 29, 1853, F.O. 195/362.

(٣) Thompson to Clarenden : July 22, 1854, August 21, 1854 (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 108, pp. 594-602).

(٤) ظل والياً على بغداد حتى توفى بها سنة ١٨٥٦ .

(٥) Rawlinson to Redcliffe : July 25, 27, 1853, F.O. 195/367.

والكردية التي تؤلف أغلبية سكان العراق — فلم تسهم في تقديم المعونات المالية ، أولا لنقص السيولة النقدية لديهم بشكل كبير جداً ، ولأنهم لم يتعودوا دفع الضرائب للحكومة إلا بتهديد السلاح . وفكر رشيد الكوزلكلي كذلك في الأضرار اقتصادياً بفارس بسلبها بعض دخلها الوفير من ميناء المحمرة ، وذلك بأن يجعل ميناء البصرة ميناءاً مفتوحاً فتتحول إليه السفن ولا تذهب إلى المحمرة فيعود إلى البصرة ازدهارها[١] ، كما فكر في إقامة تحصينات في زهاب . وكانت منطقة زهاب مقسمة بين الدولتين الفارسية والعثمانية بمقتضى معاهدة أضروم الثانية . ومع هذا ظلت منطقة من مناطق النزاع . وبإقامة تحصينات عثمانية في المنطقة يمكن إغلاق أخطر طريق يسلكه الفرس عند غزو العراق . إلا أن الإنجليز لم يوافقوا العثمانيين على هذه المشروعات لا لأن الفرس يعارضونها بشدة فحسب بل لأنها أيضاً ستؤدى إلى أن يتخذ الفرس إجراءات مضادة عنيفة وقد يثيروا مشكلات الحدود بشكل يضر بالدولة العثمانية في هذا الوقت العصيب[٢] .

كذلك اتجه رشيد الكوزلكلي إلى وضع نقط مراقبة على الحدود ، وحتى لا يثير أزمات حادة مع السلطات الفارسية ادعى أنه ينشىء محاجر صحية لمنع تسرب الكوليرا إلى العراق ، وكان المفروض هو أن تنتشر هذه المحاجر على طول الحدود الفارسية العراقية لتكون بمثابة مراكز مراقبة إلى جانب أنها يمكن أن تستخدم في منع المتسللين من اجتياز الحدود من إيران إلى العراق . ولكن السلطات الفارسية احتجت على تلك الإجراءات ، واعتبرتها أقرب إلى الأعمال السياسية منها إلى أعمال الصحة الوقائية الدولية[٣] . ويبدو أن رشيد باشا لم يتابع تنفيذ خطته هذه حيث أن حاكم ششتر حشد حينذاك عشرين ألف مقاتل[٤] . ومن ثم أصبحت المواجهة العسكرية هي الأمر الملح في مثل هذه التطورات .

---

(١) Rawlinson to Sheil : January 29, 1853, F.O. 78/957.

(٢) Ibid.
Turco-Persian Boundary Negotiations, Part I, (1843-1844), pp. 115-119, Part III (1845-1852), pp. 107/115, ـ .ل. 424/7B, F.O. 424/7D.

وانظر عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين : بغداد ج ٧ ص ٧٩ و ١٨١ .

(٣) Rawlinson to Redcliffe : No. 36, December 13, 1853, F.O. 195/367.

(٤) Rawlinson to Redcliffe : No. 37, December 28, 1853, F.O. 195/367.

لم يكن تحت يد رشيد الكوزلكلى سوى ١٦ ألف مقاتل ، وهو جيش لا يستطيع وحده أن يصد الجيوش الفارسية . ولكن لم يكن فى استطاعته أن يطلب المساعدة العسكرية من الولايات الأخرى . فمصر — التى استنجد بها السلطان محمود الثانى من قبل لإنقاذ العراق من الغزو الفارسى[1] سنة ١٨٢١ — ١٨٢٣ كانت قد أرسلت جزءاً من قواتها إلى جبهة البلقان[2] ، وتحولت القوات العثمانية المرابطة فى شمال العراق والشام والأناضول إلى أرضروم للاحتشاد هناك لصد أى هجوم من تلك النواحى[3] . بل لقد طلب السلطان العثمانى من والى الموصل — فى وقت متأخر من الحرب — أن يقدم خمسمائة خيال لإرسالهم إلى جبهة القرم[4] وآثرت القيادات العثمانية ألا تسحب أية قوات من تلك التى تحت قيادة رشيد الكوزلكلى حتى تمكنه من مواجهة أى هجوم مفاجىء فارسى[5].

كان رشيد الكوزلكلى فى نفس الوقت لا يستطيع أن يلقى بكل ما لديه من قوات فى الموقعة المنتظرة ، ولا يستطيع أن يوزع قواته كلها على المواقع الاستراتيجية التى يجب أن تعسكر فيها ، وذلك لأن العشائر الكردية والعربية ما كانت لتتورع عن الثورة فى مثل تلك الظروف الحرجة . ولذلك لم يكن فى وسع رشيد الكوزلكلى سوى أن يستخدم عشرة آلاف جندى فقط من قواته لمواجهة الغزو الفارسى وأما الستة آلاف الباقية فيجب أن تبقى للمحافظة على هدوء العشائر . إلا أن رشيد الكوزلكلى عمل على تنفيذ خطة طيبة اعتقد أنها تمكنه من الاستفادة من الستة آلاف جندى — سالفى الذكر — فى مواجهة الغزو الفارسى فقد أعلن أن الحكومة تريد أن تفتح صفحة جديدة مع العشائر وعفا الله عما سلف ، وطلب من العشائر أن تقدم رجالها للدفاع عن البلاد وأن تقف كلها وقفة بطولية إلى جانب جيش الحكومة دفاعاً عن دولة الخلافة . وكان الكوزلكلى يعتقد أنه بذلك يستطيع

---

(١) ع. نوار : داود باشا : المكتبة العربية القاهرة ١٩٦٨ ص ١٧٦ — ١٧٩ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٨ ج ١ ص ١٨ — ١٩ و ٣٥ — ٣٧ .

(٣) Rawlinson to Redcliffe : June 29, 1853, F.O. 195/367.

(٤) Rassam to Cadrington (C. in C. of British Forces in the East, April 7, 1856), No. I, F.O. 195/394.

(٥) Rawlinson to Redcliffe : June 29, 1853, F.O. 195/367. Rawlinson to Malmesbury : F.O. 78/957, 1853.

أن يكسب هدوء المشائر وبالتالى يستطيع أن يستخدم كل ما كان تحت يده من قوات فى جبهات القتال المتوقعة ، كما أن هدوء الجبهة الداخلية العراقية — وهو أمر قليل الحدوث — سيجمل من العسير على الفرس التدخل فى أمور العراق الداخلية ، ناهيك عن غزوه[١] . ويبدو أنه لقى نجاحاً فى هذه الخطة ، حيث أننا لم نسمع عن تمردات عشائرية خلال فترة الحرب ( ١٨٥٣ — ١٨٥٦ )[٢] . بل إنه استطاع أن يدعو عشائر ستمر الجربا[٣] وعشائر عتره[٤] إلى الإنضمام إلى الجيش ، كما طلبت من عشائر المنتفق[٥] أن تكون على أهبة الاستعداد لخوض المعركة المقبلة .

كذلك استعان رشيد الكوزلكلى بالأسرات الكردية الحاكمة سابقاً ، لجمع قوات إضافية . فقد طلب من رسول بك ( آخر أمراء راوندوز ) أن يتوجه إلى كركوك بما يستطيع جمعه من القوات الكردية ، كما استدعى من الأستانه عبد الله بابان — آخر حكام السليمانية — وطلب منه أن يجمع أكبر عدد ممكن من القوات الكردية للدفاع عن الحدود الكردستانية[٦] .

وخلال هذه الحرب اكتشف الكوزلكلى قيمة استخدام البواخر فى النقل سواء من الناحية التجارية أو من الناحية العسكرية ، ولهذا . عمل على تكوين شركة نصف رأسمالها حكومى والنصف الثانى أهلى لشراء باخرتين لتعملا فى أنهار العراق . ونجح المشروع ، وتكونت الشركة ، وكلف الكوزلكلى أحد المصانع

---

(١) Ibid.

(٢) ع. العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ٧ ص ١٠٥ — ١١٦ .

(٣) من كبريات عشائر العراق البدوية العربية ولها تاريخ مجيد فى الدفاع عن العراق ضد الفرس .

(٤) أكبر مجموعة عشائرية عربية تنزل فى الصحراء بين العراق والشام .

(٥) Rawlinson to Redcliffe : No. 36, December 13, 1853, F.O. 195/367.

وعشائر المنتفق فى جنوب العراق من أقوى عشائر العراق ولها تاريخ مجيد فى الدفاع عن البصرة ضد الغزوات الفارسية .

(٦) Rawlinson to Redcliffe : No. 34, 35, November 16, 30, 1853, Ibid.

البلجيكية[1] لبناء الباخرتين لحساب الشركة . وهكذا نستطيع أن نقول إن حرب القرم هى أول حرب أوربية استخدمت فيها البواخر[2] وأنها أيضاً أول حرب أدت إلى استخدام البواخر الوطنية فى المياه العراقية .

بعد تلك الاستعدادات حشد رشيد باشا قواته على طول الحدود العراقية الفارسية فاستفسرت السلطات الفارسية من المسئولين العثمانيين عن سبب ذلك فامتنع العثمانيون عن إعطاء أى تفسير ، فرد الفرس على ذلك بحشد قواتهم فى مواجهة الحشود العثمانية وحاول السفير العثمانى لدى الشاه أن يقنعه بالعدول عن تلك الاستعدادات حتى لقد بلغ به الأمر أن هدد بمغادرة طهران أن لم توقف تلك الإستعدادات . ولكن دون جدوى[3] . فأخذت العلاقات تتوتر بسرعة كبيرة بين الدولتين خاصة وأن القنصل الفارسى فى العراق كان فى الوقت نفسه يهدد هو الآخر بالانسحاب من العراق بسبب المعاملة السيئة التى كان يعانى منها الفرس فى العتبات المقدسة حينذاك[4] . ومما زاد فى حدة التوتر أن الفرس عينوا خبيراً روسياً فى الجيش الفارسى المرابط فى ( بوشهر ) وإقليم فارس وهو أمر اعتبره العثمانيون تهديداً مباشراً للعراق حيث أن العثمانيين كانوا فى حرب فعلية ضد الروس[5] .

ثم إن الفرس بعثوا بقواتهم إلى جزيرة ( خرج ) فرد العثمانيون على ذلك بأن طلبوا من شيخ الكويت الاستعداد لقتال الفرس وأن يضع سفنه فى شط العرب لمنعهم

---

(١) يلاحظ أن رشيد الكوزلكلى لم يطلب بناء الباخرتين فى المصانع البريطانية ولعله فعل ذلك عن عمد ، بقصد الابتعاد بقدر الإمكان عن مصادر النفوذ الانجليزى فى العراق . انظر عباس العزاوى : تاريخ العراق ج ٧ ص ١١٠ — ١١٤ .
T. Cuinet : La Turquie d'Asie, Paris, Tome III, p. 249.

(٢) أ. جرانت وهـ . تمبرلى : تاريخ أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ترجمة بهاء فهمى ومراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم ، مؤسسة سجل العرب ص ٤١٧ .

(٣) Thompson to Clarendon : November 20, 1853, (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 106, pp. 237-9.

(٤) Rawlinson to Redcliffe : November 16, 1853, No. 34 November 30, 1853, F.O. 195/367.

(٥) Thompson to Clarendon : November 20, 1853, (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 106, pp. 237-239.

من عبوره[١] . ومع أن المحمرة كانت قد أصبحت تابعة لفارس بمقتضى معاهدة أرضروم الثانية ، إلا أن رشيد وجد أن الخطر الذى يهدد شط العرب من جانبها كبير ، وأنه من حسن السياسة أن يقوم بمحاولة لكسب صداقة وتعاون شيخ المحمرة معه . والمعروف أن تاريخ المحمرة عبارة عن سلسلة من التردد بين الولاء للسلطان والولاء للشاه . وفعلا عرض الكوزلكلى على الشيخ جابر — شيخ المحمرة — أن يتعاون مع حكومة بغداد[٢] . ولكن يبدو أن شيوخ عربستان والمحمرة فضلوا الوقوف على الحياد خلال هذه الفترة .

والواقع أن الجبهة الجنوبية للعراق كانت أكثر الجبهات عرضة للغزو الفارسى ، وهو أمر كان يراه الإنجليز على جانب خطير من الأهمية بالنسبة لمصالحهم وأطماعهم فى المنطقة ، حيث أن سيطرة الفرس على شط العرب والبصرة تعنى أن منفذ العراق أصبح فى قبضتهم ، وأن السفن الإنجليزية العاملة بين بغداد والبصرةوالخليج العربى والهند أصبحت تحت رحمة فارس . فضلا عن استيلاء الفرس على البصرة أو شط العرب يضع الطريق العالمى عبر العراق إلى الهند فى يد فارس المعادية للانجليز حينذاك ولهذا لم يكتف الإنجليز بالاستعدادات التى اتخذها الكوزلكلى للدفاع عن البصرة وعن شط العرب ، وإنما أرسلوا إلى شط العرب إحدى قطعهم الحربية البحرية وهى الباخرة أوكلاند Aukland لتسيطر على الوضع الراهن فى المنطقـــة الحساسة حتى لا تجد فارس أية ذريعة لإقحام حرب على الدولة العثمانية[٣] . وأغلب الظن أن الإتفاق — الذى توصلت إليه الحكومتان الفارسية والعثمانية بشأن قيام كل منهما بضرب العشائر الجافية المتمردة على الحدود كلما استطاعت أية قوات فارسية أو عثمانية اللحاق بها[٤] — كان بوساطة الإنجليز الذين كان من مصلحتهم استتباب الهدوء على طول الحدود بين الدولتين .

---

(١) Kemball to Thompson : December 15, 1853, (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 107, pp. 83-90).

(٢) Rawlinson to British Embassy : January 25, 1854, No. 2 (Saldanha : Precis of Turkish-Arabia, Culcutta 19-4, Paragraph No. 7).

(٣) Ibid.

(٤) Thompson to Clarendon : August 21, 1854 (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 108, p. 703).

وانقضت بتلك الاستعدادات الأشهر الأولى من الحرب التى وقفت خلالها الدولة العثمانية بمفردها أمام روسيا . ثم حدث أن حطم الأسطول الروسى السفن العثمانية الراسية فى ميناء سينوب فى وقت كانت فيه مفاوضات الصلح قد أحرزت تقدماً كبيراً ، ولكن تلك الحادثة أدت إلى أن تعلن كل من فرنسا وانجلترا الحرب على روسيا .

ويبدو أن روسيا لم تعن كثيراً بنواحى العراق فى المراحل الأولى من الحرب اعتماداً على المفاوضات الجارية لعقد الصلح ، وعلى مقدرة الفرس على إثارة المشاكل فى وجه العثمانيين فى العراق . فلما أعلنت فرنسا وانجلترا الحرب وتقطعت كل الآمال بشأن الصلح التفتت روسيا إلى الاستفادة من القوى الكارهة للحكم العثمانى فى العراق وكانت بعض هذه القوى مستعدة فعلا لأن تمد يدها إلى الروس ومن ذلك أن شيخ عشيرة ( بانيانزلى ) الكردى ثار على الحكومة العثمانية وانضم إلى الروس[1] . وأجرى الروس من جانبهم اتصالات بعشائر كردية أخرى وكذلك بالنساطرة الكارهين للحكم العثمانى[2] . ولكن هذه الاتصالات جاءت فى وقت متأخر جداً من الحرب ولعل هذا التأخير كان لأن الروس فقدوا الثقة فى أن يقوم الفرس بعمل إيجابى ضد العراق . ومع أنه كان من المنتظر أن يؤدى سقوط سباستبول ( ١٩٥٥/٩/٨ ) فى يد الحلفاء إلى التخفيف من النشاط الروسى نحو العراق ، إلا أن سقوط قارص فى يد الروس بعد ذلك بوقت قصير أعطى للروس إمكانات وفرصاً أوسع لزيادة نشاطهم فى أنحاء العراق . وفعلا خشى الانجليز من تزايد هذا النشاط الروسى بين عرب وأكراد العراق بعد سقوط قارص ، وكان رشيد الكوزلكلى أشد تخوفاً من الإنجليز فى هـذا الصدد حتى أنه طلب من الإنجليز أن يبعثوا إلى العراق — بأقصى سرعة ممكنة — بقوات هندية للمشاركة فى الدفاع عن البلاد[3] .

وليست هذه هى المرة الأولى التى تأتى فيها قوات هندية إلى العراق خلال حرب القرم . فقد عبر ثلاثون ألف مقاتل من الهند العراق سنة ١٨٥٥ وهم فى طريقهم

---

(١) Rassam to Recdliffe : No. 10, April 26, 1856, F.O. 195/394.

(٢) Kemball to Clarendon : No. 4, January 7, 1856, No. 5, February 4, 1856, F.O. 78/1212.

(٣) Ibid.

إلى جبهة القتال الروسية العثمانية فى قارص(١) ولكن القوات التى طلبها رشيد الكوزلكلى لم تعد هناك حاجة إليها لأن الحرب توقفت بعد ذلك بوقت قصير تمهيداً لعقد الصلح وبالتالى توقفت كل الاستعدادات العسكرية على طول الحدود الشرقية العراقية .

مما سبق يتضح لنا أن الاستعدادات العثمانية الفارسية على جانبى الحدود العراقية كانت كبيرة ولكن دون أن تقع اشتباكات بين الطرفين . وظل الهدوء مخيماً على المعسكرات حتى وقع صلح باريس ١٨٥٦ م . ولم يتعرض هذا الصلح للعراق حيث لم تجر فيه أية تغيرات . ولكن أثر ذلك الصلح تأثيراً غير مباشر على فارس ، حيث تمكنت إنجلترا — بعد أن فرغت من حرب القرم — من أن توجه ضربة إلى فارس ، فأرسلت حملة بحرية صعدت فى نهر كارون واستولت على المحمرة ( ١٨٥٧ ) ، واشتركت فى هذه العمليات الباخرة الإنجليزية المسلحة كوميت Comet الراسية أمام القنصلية الإنجليزية فى بغداد . وتغاضى العثمانيون عن ذلك حيث أن التحالف الإنجليزى العثمانى كان فى ذروة قوته (٢).

وبعد حرب القرم ازدادت أهمية العراق ازدياداً كبيراً جداً نظراً لأن الفرنسيين كانوا فعلا قد أخذوا من سعيد باشا — حاكم مصر — امتياز حفر قناة السويس ( ١٨٥٤ — ١٨٥٦ ) . وأصبح طريق العراق — فى نظر الإنجليز — هو الطريق البديل إذا ما سيطر الفرنسيون على قناة السويس . كذلك رأى عدد من الإنجليز المعنيين بالمواصلات الإنجليزية مع الشرق الأقصى أنه قد أصبح من الضرورى على انجلترا تنفيذ المشروع الذى يربط البحر المتوسط بالخليج العربى بخط حديدى يتولى أمره الإنجليز . وتزعم هذه الفكرة و . أندرو Andrew (٣) ، ف . جسنى

(١) Kemball to Clarendon : No. 4, January 7, 1857, F.O. 78/1212.

(٢) Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf, Vol. I, Part I, p. 1386 ; Tart II, p. 1698.

وانظر P. Sykes : A History of Persia, London 1951, Vol. II, pp. 349-351.

(٣) اشتهر بمشروعات من خطوط حديدية فى الهند وبدعاياته واسعة النطاق من أجل مد خط حديد الفرات .

Chesney (١) . ولكن بالمرستون أعلن فى البرلمان البريطانى(٢) أنه لن يوافق على إعطاء أى تأييد حكومى لمثل تلك المشروعات ، وفى نفس الوقت سار بالمرستون فى معارضته لمشروع شق قناة السويس(٣) على أن الحكومة الإنجليزية فى الوقت نفسه قررت أن تكون لها السيطرة الاحتكارية على أنهار العراق من النواحى التجارية والنواحى العسكرية على السواء ولم يتورع الإنجليز فى ذلك عن أن يقتلوا أو على الأقل أن يسهموا فى الإجهاز على مشروع رشيد باشا الكوزلكلى الذى سبق أن أشرنا إليه . فالملاحظ أن الباخرتين اللتين طلب رشيد باشا شراءهما لاستخدامهما فى المياه العراقية لربط بغداد بالبصرة بخطوط بواخر منتظمة ، بدأتا فى العمل فى العراق فى أبريل ١٨٥٩(٤) ولم تمر سنة واحدة حتى تعطلت الباخرتان وأسرعت البيوتات الإنجليزية فى العراق إلى تأليف شركة عرفت باسم شركة لينش للملاحة البخارية فى نهرى دجلة والفرات فى ١٨٦٠ .

Messrs. Lynch of the Euphrates and Tigris Steam Navigation Company.

وكان بيت لينش هو ممثل هذه الشركة فى العراق ثم استصدرت السفارة البريطانية فى الاستانة فرماناً من الباب العالى يعطيهم حق استخدام باخرة فى نهر دجلة وفعلا نزلت الباخرة سيتى أوف لندن إلى المياه العراقية فى ١٨٦٢ . وتوالى نزول البواخر التجارية البريطانية فى العراق حتى تفوقت البواخر البريطانية على العثمانية فى الوقت الذى كانت توجد فى المياه العراقية منذ ١٨٣٩ باخرة مسلحة بريطانية(٥)

---

(١) هو نفسه قائد بعثة الفرات التى وضعت أساس السيطرة البريطانية على أنها العراق ( ١٨٣٤ — ١٨٣٧ ) . وقد أورد هوسكنز تفاصيل وافية عن نشاط كل من أندرو وحسنى فى هذا الصدد .

انظر British Routes to India : London 1928, Chapters : VII, VIII, XIII.

(٢) Ibid., p. 24-26.

(٣) الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ ص ٥٧ — ٦١ .

(٤) R. Brant's Memorandum Respecting the Navigation of the Tigris and Euphrates, April 1913. Confidential (10207), pp. 23-26.
Cuinet : op. cit., Tome III, p. 249.

(٥) Ibid., p. 341.

ولم يكن للعثمانيين أى باخرة مسلحة على نفس المستوى أى أن السيطرة العسكرية كانت لهم هناك وبفضل البواخر البخارية الجديدة حصلوا على السيطرة الاقتصادية كذلك . الأمر الذى سيؤدى إلى نزاع متطاول بين الإنجليز والعثمانيين لم يحسمه سوى الاحتلال البريطانى للعراق خلال الحرب العالمية الأولى .

# المراجع العربية


— جرانت وتمبرلى : تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ترجمة بهاء وفهمى ، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم ، مؤسسة سجل العرب .

— الرافعى ( عبد الرحمن ) : عصر إسماعيل ، ج ١ ، الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٤٨ .

— صفوت ( محمد مصطفى ) : محاضرات فى المسألة الشرقية ومؤتمر باريس بمعهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية — القاهرة ١٩٥٨ .

— العزاوى ( عباس ) : تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ١٩٥٤ ، ١٩٥٦ ج ٦ ، ج ٧ .

— نوار ( عبد العزيز ) :

* تاريخ العراق الحديث ١٨٣٠ — ١٧٨٢ ، المكتبة العربية — دار الكاتب العربى القاهرة تحت الطبع .

* داود باشا والى بغداد ١٨١٦ — ١٨٣١ ، المكتبة العربية — دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٨ .


## صحف


— تقديم وقائع ، العدد ٥٤٧ لسنة ١٢٧٣ ﻫ / ١٨٥١ م .


## Abreviations

I.O.R., F.R., P.P.G. : India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf.

## الوثائق غير المنشورة

BRANT, R. : Memorandum respecting the Navigation of the Tigris and Euphrates, April 1913, F.O. Confidential 10207.

مصورة على ميكروفيلم

F.O. 78/656, 957, 1212.

F.O. 195/237, 334, 367, 394, 957.

F.O. 424/7 B, D.

مصورة على ميكروفيلم

India Office Records

- Factory Records, Persia and Persian Gulf, Vols. 53, I06-108.
- Political and Secret Department, vol. 13.

LORIMER, J.H. : Gazetteer of the Persian Gulf, voll I, part 1, Calcutta, 1915.

SALDANHA : Precis of Turkish Arabia, Calcutta, 1904.

مصورة على ميكروفيلم

TAYLOR : Memorandum on the Actual Position of the Pachalic of Bagdad (I.O.R., F.R., P.P.G., vol. 53, pp, 799-818.

## المراجع الأوربية

CUINET, T. : La Turquie d'Asie, Paris, tome III.

FONTANIER, V. : Voyage dans l'Inde, Paris 1840 (2 tomes).

GRANT, A. : The Nestorians or the Lost Tribes. Containing Evidence of their Identity, London 1841.

HOSKINS, J. : British Routes to India, London 1928.

HUART, C. : Histoire des Arabes, Paris 1912, tome II.

HUREWITZ, J. : Diplomacy in the Near and Middle East, vol. I, London 1958.

LAYARD, H. : Early Adventures in Persia, London 1887.

PLATONOV, S.F. : History of Russia, London 1925.

ROSS, H.J. : Letters from the East (Edited by his Wife), London 1902.

SAMUEL, J. : Journal of A Missionary Tour through the Desert of Arabia, Edinborough 1844.

SYKES, P. : A History of Persia, London 1951 (2 vols.).

WHIGHAM, N. : The Persian Problem, London 1903.